

الأنشطة الاقتصادية بمركزي مدينة تطوان: دراسة في الخصائص وإيقاعات التطور

Economic activities in the two centers of Tetouan: a study in the characteristics and rhythms of developmentبلال الزروالي¹، إلياس أردة²¹ جامعة عبد المالك السعدي (المغرب)، zaroualib@gmail.com² جامعة عبد المالك السعدي (المغرب)، ilyass.arada@gmail.com

تاريخ النشر: 03/09/2020

تاريخ القبول: 22/08/2020

تاريخ الاستلام: 18/08/2020

ملخص:

إن الغرض من هذه الدراسة يكمن في إبراز خصائص بنية الأنشطة الاقتصادية بمركزي مدينة تطوان، وذلك من خلال التركيز على المميزات الكمية والنوعية لهذه البنية والاختلافات الحاصلة بين الحيين المدروسين، وذلك من خلال الوقوف على أهم التغيرات التي شملتهما، وتأثير ذلك على تراجع الوزن الاقتصادي بهما. وقد خلصنا في هذه الدراسة إلى أن البنية الاقتصادية لمركزي مدينة تطوان تعرف تفاوتات واختلافات جوهرية بين مختلف قطاعاتها الاقتصادية (التجارية، الخدماتية والحرفية)، إلا أن هذا الاختلاف، أحدث نوعاً من التكامل والانسجام بينهما (المجالين المدروسين)؛ بل إنه لعب دوراً رئيسياً في إضفاء نوع من التخصص الوظيفي

كلمات مفتاحية: المركز العصري والمدينة العتيقة لتطوان، التخصص الوظيفي، الأنشطة الاقتصادية، الجغرافية الاقتصادية، المركزية الحضرية.

Abstract:

The purpose of this study is to highlight the characteristics of the structure of economic activities in the two centers of Tetouan, by focusing on the quantitative and qualitative features of this structure and the differences between the two studied neighborhoods, by examining the most important changes that included them, and the effect of that on the decline of their economic weight. We concluded in this study that the economic structure of the two centers of the city of Tetouan knows fundamental differences and differences between its various economic sectors (commercial, service and crafts), but this difference resulted in a kind of integration and harmony between them (the two areas studied). Rather, it played a major role in imparting a kind of functional specialization

Keywords: The modern center and antique city of Tetouan; functional specialization; economic activities; economic geography; urban centrality.

1. مقدمة:

تشكل الأنشطة الاقتصادية إلى جانب السكن والسكان والمرافق الضرورية أحد أهم المكونات الأساسية التي تؤثر في فضاء المركزين العصري والعتيق لتطوان، بل إن هذه المكونات تضيف على هذين المجالين صبغة خاصة وأهمية كبيرة على مستوى التنظيم المجالي لمجموع الجهاز الحضري الحاضر لهما، وذلك من خلال المركزية القوية التي تمارسها أنشطتهما الاقتصادية، على الرغم من التحولات الكبيرة التي مست الخريطة الاقتصادية للمدينة.

ومن المعلوم أن الأنشطة بهذين المركزين عرفت تحولات عميقة في بنيتها وفي أعدادها. فعلى مستوى المدينة العتيقة تراجعت الأهمية الاقتصادية لحرف الإنتاج، مقابل تزايد أهمية القطاعين التجاري والخدماتي، بالإضافة إلى اختلال النسق الوظيفي القديم والتخصص المجالي بهذا النسيج، الشيء الذي سمح بتحول البنية الاقتصادية والمجالية بهذا النسيج الأصيل، وبالتالي انتقاله من مركز للإنتاج إلى مركز للتوزيع.

وعلى مستوى المركز العصري، أو مركز الأعمال على مستوى مدينة تطوان، فنجد قطاع الخدمات. ونظرا لأهمية تمثيلته المجالية، فإنه أصبح يشكل منافسا قويا للوظيفة الاجتماعية للسكن، كما أنه على الرغم من ظهور مجموعة من المحاور الخدماتية المتخصصة، مازال يمارس مركزية خدماتية قوية على مجمل المدينة.

ومن جانب آخر، على الرغم من اختلاف بنية الأنشطة الاقتصادية للمركزين المدروسين، فإن ذلك، خلق نوعا من التكامل والانسجام بينهما، بل إنه لعب دورا رئيسيا في إضفاء نوع من التخصص الوظيفي بينهما، واختلاف نوعية الاستقطاب الممارس. وهذا ما جعل المجالين المدروسين يلعبان دور القيادة على مختلف مكونات المجال الحضري التطواني.

سنحاول في هذا المقال، دراسة بنية الأنشطة الاقتصادية بالحيين المعنيين بالدراسة وأهم التحولات التي مستها سواء على المستوى الكيفي أو الكمي، وذلك بالاعتماد على نتائج العمل الميداني لسنة 2016 ونتائج الأعمال الميدانية لسنوات 1971 و1982 و2004.

وعليه، فإن هذا المقال، يشكل فرصة للإجابة على أحد فرضية أساسية وسؤال جوهري يتلخص في كون الاختلاف الحاصل في بنية الأنشطة الاقتصادية يعتبر عاملا من عوامل الاندماج المجالي أم عامل من عوامل التناقض المجالي.

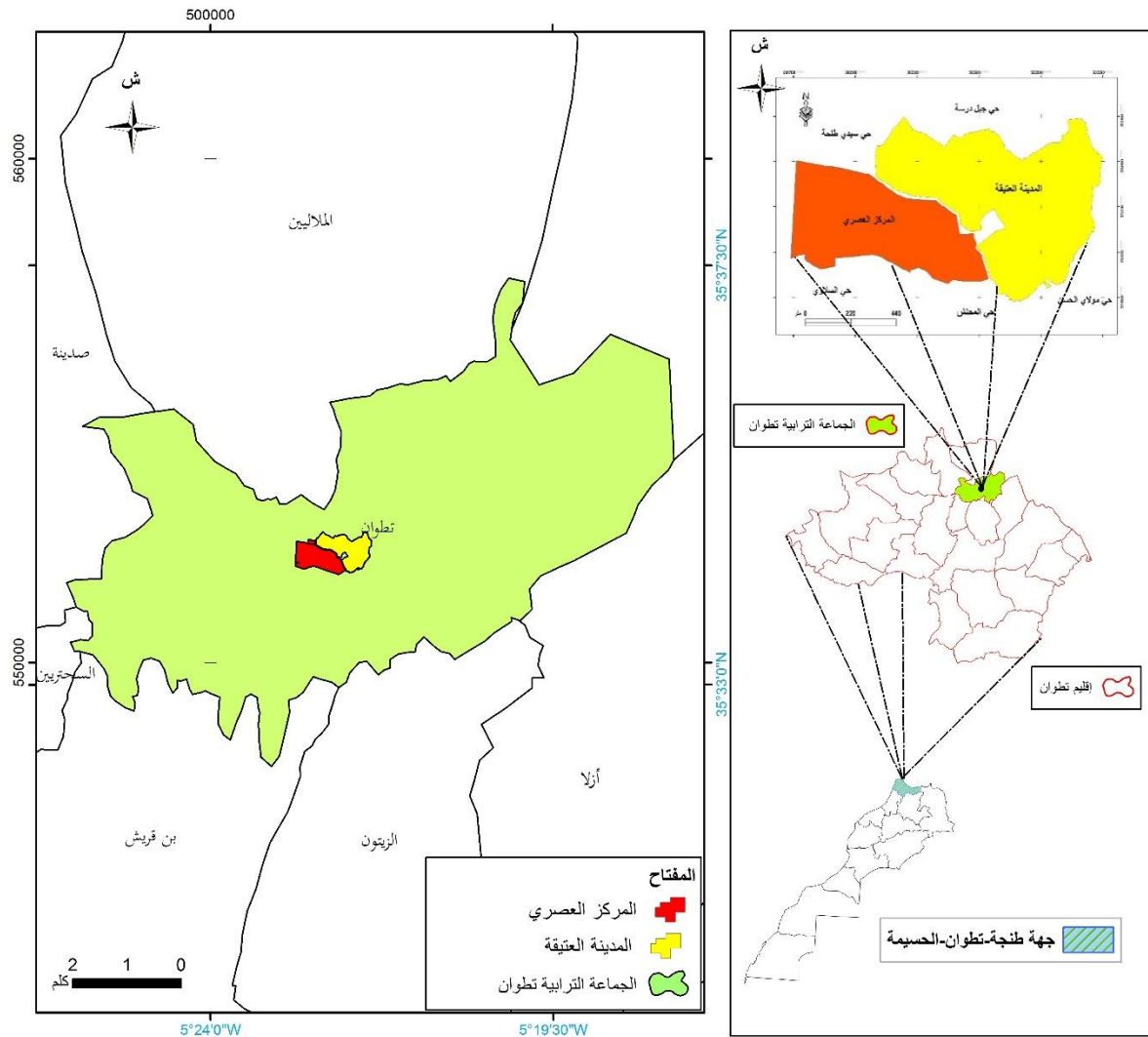
1. التوطن المجالي والأهمية الوظيفية لمركزي مدينة تطوان

ينتمي المركز العصري والمدينة العتيقة إلى مدينة تطوان التي تقع بدورها في الشمال الغربي للمملكة المغربية، بأقصى شمال سلسلة جبال الريف الغربي، على بعد حوالي 40 كلم عن سبتة المحتلة و10 كلم عن البحر الأبيض المتوسط.

تنتمي المدينة إداريا، إلى إقليم تطوان -الذي ينضوي بدوره تحت نفوذ جهة طنجة-تطوان-الحسيمة، تحدها من الشمال الجماعة الترابية الملاليين، ومن الجنوب جماعاتي أزلا والزيتون، وتحدها غربا بجماعة صدينة، وشرقا بالجماعة الترابية لمرتيل.

ويأخذ المجال المدروس موضعا هاما ضمن النسيج الحضري التطواني، حيث يقع بقلب المدينة، وبشكل مركزا لمجموعة من العلاقات والترابطات بين مختلف الأنساق المجالية للحظيرة المعنية: يحدهما شمالا حي درسة، وجنوبا أحياء كل من المحنش وكرة السبع، وشرقا أحياء: الطويلع، ومولاي الحسن، وغربا حي سيدي طلحة.

خريطة رقم 1: توطين المجال المدرّوس ضمن مدينة واقليم تطوان

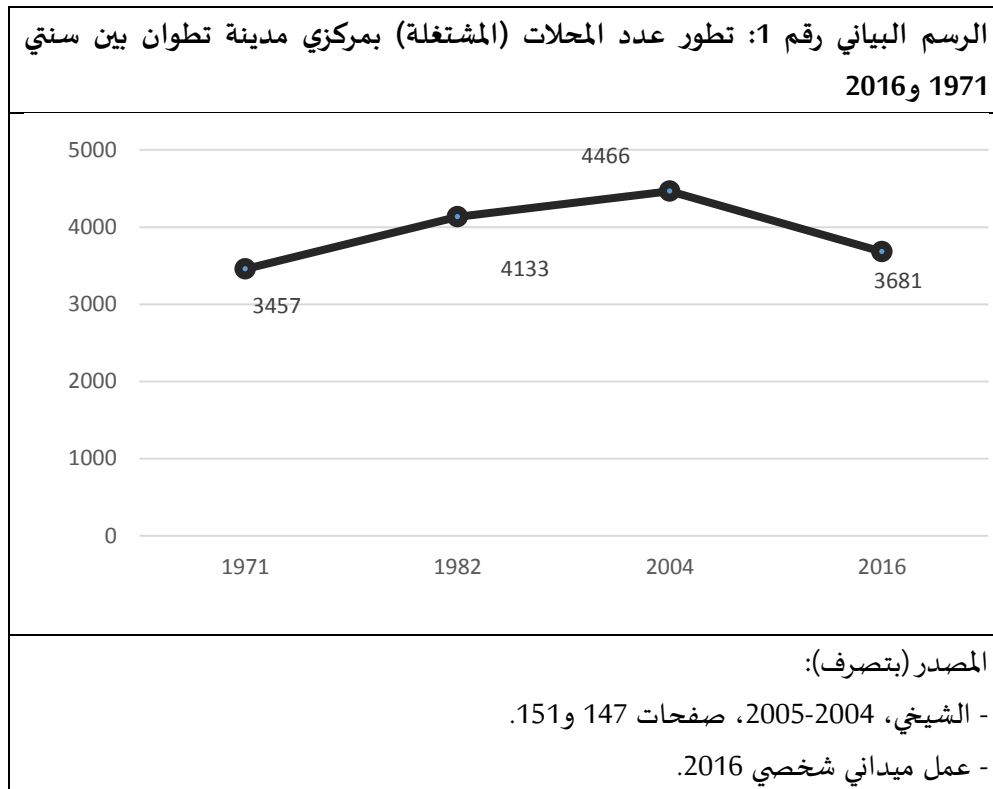


المصدر: عمل شخصي اعتمادا على تقرير اللجنة الاستشارية حول الجهوية المتقدمة.

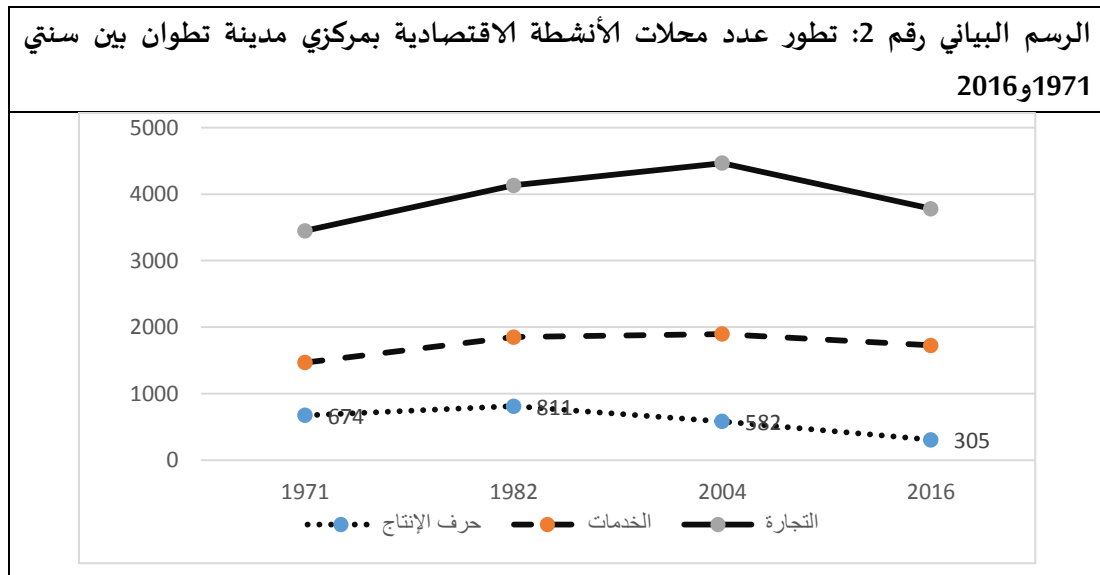
2. تطور الأنشطة الاقتصادية بمركزي مدينة تطوان: يبرز تراجع وزنهما الاقتصادي

سنحاول من خلال هذا المحور إبراز تطور الأنشطة أي درجة نموها سواء على المستويين الكمي أو النوعي، وهذا التطور سوف نحاول استنتاجه من خلال قراءتنا لنتائج الإحصاءات العامة لسنوات 1971 و1982 و2004 إضافة إلى الجرد الميداني المنجز سنة 2016، هذه الفترة الزمنية التي تمثل حوالي نصف قرن (45 سنة) سوف تساعدنا على الوقوف بشكل مباشر على درجة تطور محلات الأنشطة بكل من المركز العصري والمدينة العتيقة وبهما معا.

عموما، نجد أن عدد المحلات عرف تطورا كميا (الرسم البياني رقم 1)، من سنة إحصائية لأخرى، فبعدما كان يصل إلى 3457 محلا سنة 1971، ارتفع إلى 4133 سنة 1982 (زيادة 676 محلا)، ثم إلى 4466 محلا سنة 2004 (زيادة 333 محلا)، وهذا الارتفاع المهم في العدد، سيعرف تراجعاً مهماً أيضاً، لاسيما بين سنتين 2004 و2016، حيث استقر العدد في 3781، بنسبة تراجع سنوي بلغت 2.40%، علماً أن هذه النسبة بلغت 0.37% خلال فترة 1982-2004، وبمعدل زيادة بلغ 1.8% محل سنوياً بين إحصائي 1971-1982. ويعكس هذا التراجع واقع دينامية الأنشطة بصفة عامة ضمن مركزي المدينة، حيث انتقلت مجموعة من الأنشطة إلى باقي أحياء المدينة، كما أن العديد من المحلات توقفت عن نشاطها.



والواقع أن وتيرة تطور الأنشطة بالمركزين المدروسين، تتميز باختلافها إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التنوع الحاصل في بنية هذه الأنشطة. حيث نجد أن الأنشطة الحرفية عرفت تراجعاً كبيراً في عدد محلاتها، وهذا التراجع بدأت مظاهره الأولى منذ سنة 1982 حيث انتقل عددها (الحرف) خلال نفس السنة من 811 إلى 588 سنة 2004 ثم إلى 305 سنة 2016 (الرسم البياني رقم 2)، وهذا التراجع، مس كذلك وزنها النسبي ضمن منظومة الأنشطة الاقتصادية بالمركزين المدروسين، حيث انتقل من حوالي 20% سنة 1982 إلى أقل من 10% (8.07%) سنة 2016 (الرسم البياني رقم 3).

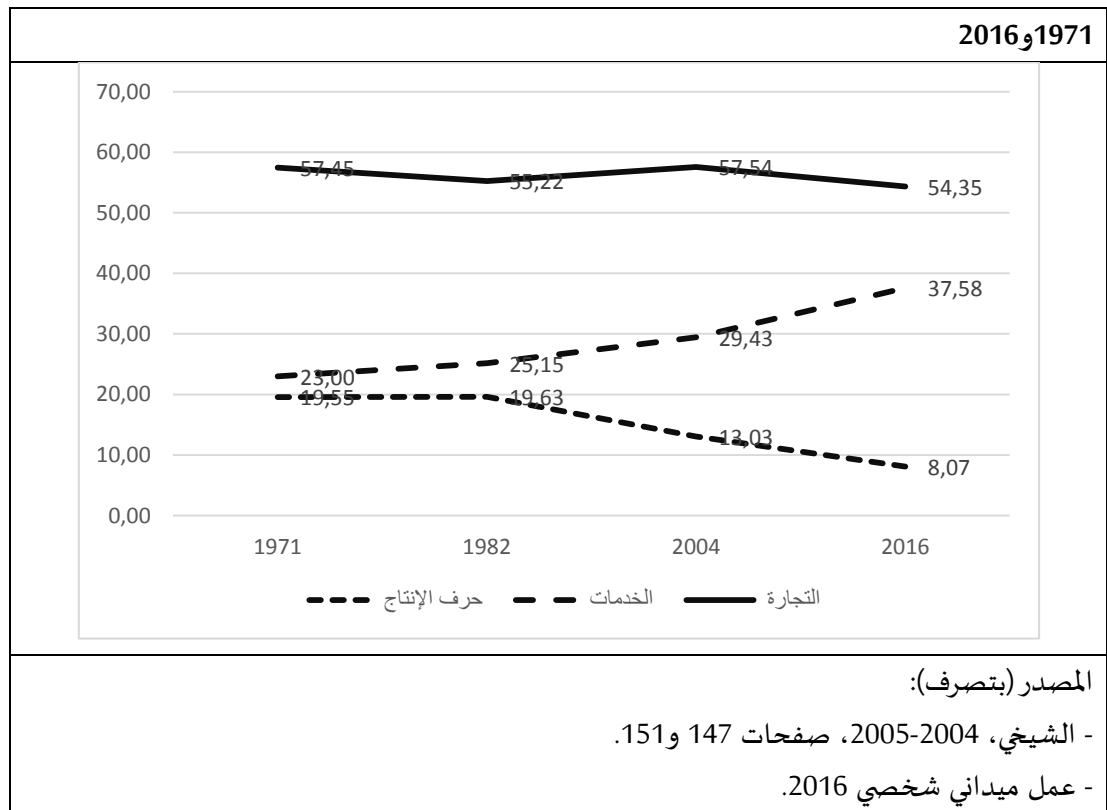


المصدر (بتصرف):

- الشيعي، 2004-2005، صفحات 147 و151.

- عمل ميداني شخصي 2016.

الرسم البياني رقم 3: تطور الوزن لمحلات الأنشطة الاقتصادية بمركزي مدينة تطوان بين سنتي



وعلى عكس المحلات الحرفية، نجد تلك التجارية، عرفت ارتفاعا مهما في وتيرة نموها، حيث انتقل عددها من 1981 سنة 1971 إلى 2281 سنة 1982 ثم إلى 2569 سنة 2004 (الرسم البياني رقم 2)، علما أن نسبها عرفت ارتفاعا مهما خلال نفس الفترة، حيث بلغت على التوالي: 57.30% ثم 55.19% و 57.19%، لتستقر في 52.45% خلال سنة 2016 (الرسم البياني رقم 3).

والملاحظ من خلال تفكيك بنية الأنشطة التجارية، وتبع وتيرة تطورها، نجد أن محلات التجارة الأخرى، سجلت أعلى معدل تزايد سنوي خلال فترة 1971-1982 بـ 15.61% محلا في كل سنة، بينما سجلت تجارة الملابس أعلى معدل تزايد سنوي لها خلال فترة 2016-2004 بـ 4.4% محل في كل سنة (الجدول الرقم 1)، وأن هذه الفترة (2004-2016)، سجلت عجزا في تزايد الأنشطة التجارية بالمركزين المدروسين (الجدولان رقم 1 و 2).

وبخصوص المحلات الخدماتية، يلاحظ من خلال رصد وتيرة نموها السنوي، أنها سجلت تراجعاً في معدل تزايدها، حيث بلغ 0.9%- خلال 2004-2016، وأن وتيرة التراجع هاته، مست بدرجات متفاوتة مختلف مكونات الأنشطة الخدماتية (الجدولان رقم 1 و 2)، باستثناء الخدمات الخاصة التي عرفت تزايداً في نموها السنوي، حيث انتقلت من 1.09% خلال 1982-2004 إلى 2.51% خلال 2004-2016. وهذا المعطى، يعكس قابلية المستثمرين في الاستثمار في المحلات ذات الوظيفة الخدماتية الخاصة وفي تجارة الملابس بشكل خاص، حيث بلغ عدد المحلات الجديدة من هذين الصنفين 679 محلا، 428 منها يختص في تجارة الملابس مقابل 199 في الخدمات الخاصة، خلال سنتي 1982 و 2004 (الجدول رقم 2).

الجدول رقم 1: التزايد السنوي للأنشطة الاقتصادية بمركزي مدينة تطوان بين

سنتي 1971 و 2016 (%)			
2004-2016	1982-2004	1971-1982	
-5.3	0.01	0.1	التغذية
4.4	0.37	-0.05	الملابس
-3.65	0.91	2.82	التجهيز
-4.17	2.18	15.61	أخرى
-2.92	0.57	1.8	مجموع التجارة
-5.72	3.16	-1.77	الإصلاح
-0.57	0.04	1.95	الفندقية
2.51	1.09	7.64	الخاصة
-0.9	1.2	2.82	مجموع الخدمات
-4.58	-1.78	1.85	الحرف
-	-	-	صناعة حديثة
-	-	-	تربية المواشي
-3.09	0.04	1.78	المجموع
المصدر (بتصرف): - الشيعي (نور الدين)، 2004-2005، صفحات 147 و 151، انطلاقاً من دفاتر الجولة للإحصاءات العامة للسكان والسكنى لسنوات 1971 و 1982 و 2004؛ - عمل ميداني شخصي 2016.			

ومن جهة أخرى، يتبين من خلال معطيات الرسم البياني السابق (رقم 40) أن عدد المحلات الخدمانية عرف ارتفاعاً مهماً، لاسيما بين سنتي 1971 و 1982، حيث انتقل عددها، خلال نفس الفترة، من 793 إلى 1314، ليستقر في 1421 سنة 2016. والملاحظ أن عدد المحلات الخدمانية خلال 12 سنة الأخيرة (2004-2016)، عرف ارتفاعاً مهماً نسبياً، حيث يلاحظ أنها ظلت محافظة على ارتفاعها، إذ انتقلت من حوالي 30% سنة 2004 إلى حوالي 40% سنة 2016، وذلك من مجموع الأنشطة الاقتصادية بالمركزين المدروسين. وهذا الارتفاع، يبين الاتجاه العام لتحول وظيفة الأنشطة بالمركزين المدروسين، حيث انتقلت من صيغتها الحرفية إلى التجارية بالمدينة العتيقة، ومن محلات ذات وظيفة سكنية إلى أنشطة خدمانية بامتياز بالمركز العصري.

وسنعمل في المحاور الموالي، على رصد بنية الأنشطة الاقتصادية، بالمركزين المدروسين، بناءً على نتائج البحث الميداني مع العودة دائماً إلى نتائج الإحصاءات والدراسات السابقة.

3. محلات مهنية متنوعة في أشكالها وبنيتها لكنها متكاملة في أنشطتها

لاشك أن الدارس لمجالين مختلفين، كالمدينة العتيقة والمركز العصري، لا بد له وأن يتلمس ثنائية مجالية واضحة. هذه الثنائية، وإن كانت تحمل أبعاداً تاريخية ترتبط بظروف وسياق نشأة وظهور كل مكون مجالي (والتي تبرز تجلياتها في فلسفة البناء والتخطيط المعتمدين)، فإنها تبرز كذلك، في طبيعة العلاقات الاجتماعية وفي طبيعة الأنشطة الاقتصادية الممارسة بين هذين المكونين. حيث نجد أن المركز العتيق، على الرغم من موجات التحديث والعصرنة التي مست مختلف هياكله، فإنه مازال، يصارع في الحفاظ على خصوصيته "الأصيلة" والتقليدية، على عكس المركز العصري -الذي يمثل وجه النقيض للمركز العتيق- الذي عرف منذ إحداثه موجات التحديث؛ بل إنه يمثل الصورة الحقيقية للعصرنة والتحديث والتجديد، الذي يجب أن تكون عليه مختلف مكونات المجال الحضري التطواني. ومن تجلياتها، طبيعة الأنشطة الاقتصادية الممارسة، التي

تختلف بشكل كبير بينها وبين المدينة العتيقة. على أن هذا الاختلاف، لا يمكن تفسيره بأي حال من الأحوال بكونهما مجالين متصارعين؛ بل يجعل منهما، مجالين مكملين لبعضهما، يضيف عليهما صفة التجاور، لا التناقض المجالي. عموماً، سنحاول في هذا المحور، إبراز مظاهر الاختلاف الحاصل في طبيعة الأنشطة الممارسة بين هذين المجالين، اعتباراً لكون أحد الفرضيات المؤسسة لهذه الأطروحة تصب في هذه الخانة. وعلى هذا الأساس فإن هذا المحور يحاول الإجابة على تساؤل مهم، هو: هل الاختلاف الحاصل في بنية الأنشطة الاقتصادية يعتبر عاملاً سلبياً في اقتصاد هذين المجالين، وبالتالي يضيف عليهما صفة التناقض المجالي، أم يعتبر عاملاً إيجابياً؟

1.3 أنشطة اقتصادية تلي مختلف الأذواق

يغلب على الأنشطة الاقتصادية الموجودة بمركزي مدينة تطوان طابع التنوع في مختلف المناحي. ويبرز هذا التنوع، بشكل كبير، في تلبيتها لمختلف أذواق الزبائن. وحين الحديث عن هذه الجزئية، فإننا لا نعي أن باقي المحلات المهنية الواقعة خارج هذين الحيين، لا تضطلع بهذا الدور؛ بل إن القصد من وراء التطرق إلى هذه الجزئية، هو إبراز الاختلاف/التكامل الحاصل في بنية الأنشطة الممارسة بين هذين المركزين، ويظهر ذلك بشكل كبير عند الحديث عن الأنشطة التجارية والخدماتية. فعلى مستوى تجارة الملابس، تنتشر بالمدينة العتيقة تجارة الألبسة المستعملة وذات الأثمنة الزهيدة، كما أنها تستقطب بشكل كبير تجارة الألبسة التقليدية، على عكس المركز العصري الذي يعرف انتشاراً كبيراً لمحلات الملابس العصرية وذات علامات تجارية مشهورة (الصورتان رقم 1 و 2).

الصورتان رقم 1 و 2: تنوع المحلات المهنية بمركزي مدينة تطوان من حيث مساحتها وتجهيزها والبضائع المسوقة فيها ونوعية الزبائن



المصدر: عدسة شخصية، بتاريخ 2018/03/07 (الصورة الأولى)، و 06/05/2016 (الصورة الثانية).

ونلمس هذا الاختلاف كذلك على مستوى تجارة المواد الغذائية، حيث نجد أن المركز العصري، تتمركز به العديد من محلات بيع المواد الغذائية هي عبارة عن "أسواق ممتازة" متوسطة، مع اختفاء شبه تام لمحلات البقالة، في حين نجد بالمدينة العتيقة، انتشاراً كبيراً لهذا النوع من المحلات، خصوصاً وأنها تسوق منتجات ومواد تدخل ضمن لائحة المواد الاستهلاكية اليومية. كما أن طبيعة العلاقة بين السكان وأصحاب المحلات يطبعها في الغالب "الإقراض"، لاسيما وأن هؤلاء الباعة، يكونون من قاطني الحي، وغالبية معاملتهم التجارية، تتم في إطار الحي. على عكس الأسواق الممتازة بالمركز العصري، التي يكون غالبية زبائنها من خارج المركز. كما أن غالبية عمليات البيع -مع وجود بعض الاستثناءات- تتم عن طريق الأداء الفوري، وهذا يرتبط تمام الارتباط، بالزبائن الموجهة إليهم. فإذا كانت تقتصر على سكان الحي بالمدينة العتيقة، فإنها بالمركز العصري، تتعدى حدود الحي لتمس مختلف الزبائن المرتدين إليها.

الجدول رقم 1: تطور نسبة وعدد الأنشطة الاقتصادية بمركزي مدينة تطوان بين سنتي 1971 و2016														
2016		2004		1982					1971					مكونات الأنشطة الاقتصادية
مركزا مدينة تطوان		مركزا مدينة تطوان		مدينة تطوان		مركزا مدينة تطوان			مدينة تطوان		مركزا مدينة تطوان			
مجموع من مركزي المدينة %	عدد المحلات	من مجموع مركزي المدينة %	عدد المحلات	%	عدد المحلات	نفس المجموع من النشاط بالمدينة %	من مجموع مركزا المدينة %	عدد المحلات	%	عدد المحلات	المجموع من نفس النشاط % بالمدينة	من مجموع مركزي المدينة %	عدد المحلات	
15.02	568	25.46	1137	31.58	2616	43.35	27.44	1134	34.95	1993	57.60	33.21	1148	التغذية
24.65	932	11.29	504	14.21	1177	39.59	11.28	466	17.45	995	47.14	13.57	469	الملابس
5.71	216	7.73	345	6.29	521	55.09	6.94	287	5.58	318	68.87	6.33	219	التجهيز
8.97	339	13.05	583	6.18	512	76.95	9.53	394	3.37	192	75.52	4.19	145	أنشطة أخرى
54.35	2055	57.52	2569	58.26	4826	47.26	55.19	2281	61.34	3498	56.63	57.30	1981	مجموع التجارة
3.04	115	7.86	351	5.60	464	44.61	5.01	207	6.98	398	64.57	7.43	257	الإصلاح
10.45	395	6.78	303	4.33	359	83.57	7.26	300	5.63	321	76.95	7.14	247	الفندقية
24.09	911	14.78	660	11.32	938	56.72	12.87	532	8.70	496	58.27	8.36	289	الخاصة
37.58	1421	29.42	1314	21.26	1761	59.00	25.14	1039	21.30	1215	65.27	22.94	793	مجموع الخدمات
8.07	305	13.03	582	17.52	1451	55.89	19.62	811	15.75	898	75.06	19.50	674	الحرف
0.00	0	0.02	1	0.59	49	4.08	0.05	2	0.67	38	10.53	0.12	4	صناعة حديثة
0.00	0	0.00	0	2.37	196	0.00	0.00	0	0.95	54	9.26	0.14	5	تربية المواشي
100.00	3781	100.00	4466	100	8283	49.90	100.00	4133	100.00	5703	60.62	100.00	3457	المجموع
المصدر (بتصرف):														
- الشيعي (نور الدين)، 2004-2005، صفحات 147 و 151، انطلاقا من دفاتر الجولة للإحصاءات العامة للسكان والسكنى لسنوات 1971 و 1982 و 2004؛														
- عمل ميداني شخصي 2016.														

ومن جهة أخرى، نجد على مستوى أنشطة الخدمات، أنها هي الأخرى تعرف هذا التباين، فنجد فنادق مصنفة وأخرى غير مصنفة، ومقاهي شعبية وأخرى عصرية وغيرها.

فعلى مستوى الفئة الأولى، نجد الفنادق غير المصنفة تنتشر بشكل كبير بالمدينة العتيقة وعادة ما يكون زبناؤها من ذوي الدخل المحدود، حيث تنحصر أثمان المبيت فيها ما بين 30 و100 درهم لليلة الواحدة، على عكس الفنادق المصنفة ودور الضيافة التي ترتبط بالسياح والزوار الذين يستطيعون تسديد فاتورة الاستقرار بها، والتي تنحصر بين 300 و600 درهم لليلة الواحدة.

أما على مستوى الفئة الثانية، فيصل التباين فيها مداه، حيث نجد أن جميع المقاهي بالمدينة العتيقة، عبارة عن محلات صغيرة، تقدم خدمات محدودة وبأثمان منخفضة، على عكس تلك الموجودة بالمركز العصري، التي تتصف بكبر مساحتها، وتنوع خدماتها، وبكثرة روادها، وارتفاع أثمان خدماتها بالمقارنة مع تلك الموجودة بالمدينة العتيقة.

2.3 أنشطة اقتصادية تستجيب لطلبات الزبائن من مختلف الشرائح الاجتماعية

تبرز هذه النقطة، من خلال نوعية الأنشطة المقدمة، والتي تكون في الغالب موجهة إلى فئات متنوعة ولشرائح اجتماعية متباينة، مع التأكيد على أن الفئات الاجتماعية المحدودة الدخل، غالبا ما تجد ضالتها بالمدينة العتيقة، حيث تباع الملابس المستعملة، والأثاث المنزلي المستعمل، والفنادق غير المصنفة وغيرها من الأنشطة التي تتماشى والوضع المادي المحدود لهذه الفئة.

3.3 أنشطة اقتصادية تتماشى وطبيعة "المستثمرين"

تبين من خلال المعايينات الميدانية لخصائص بنية الأنشطة الاقتصادية بمركز مدينة تطوان، أن الاستثمارات المالية المضخخة في المحلات المهنية تتباين، سواء تعلق الأمر بالمدينة العتيقة أو بالمركز العصري، أو بينهما معا. ومن المؤكد أن مقارنة نوعية الاستثمارات المالية بين المركزين المدروسين، تظهر لنا، أنها تقل بالمركز العتيق، وترتفع بشكل كبير في المركز العصري. وهذا التناقض، يبرز بشكل كبير، في محلات الأنشطة التجارية، التي يتطلب إنجازها استثمارات مالية ضخمة بالحي العصري، بينما لا يتطلب إحداثها بالمدينة العتيقة، سوى التوفر على استثمارات مالية متوسطة ومحدودة. هذا دون أن ننسى قيمة العقار الذي يرتفع ثمنه بالمجال الأول (المركز العصري) مقارنة بالمجال الثاني (المدينة العتيقة).

4.3 ثنائية الأنشطة الأصيلة والحديثة

لا شك أن هذه الثنائية، تعتبر من بين الخصائص المهمة التي تطبع الأنشطة الاقتصادية بالمركزين المدروسين، فنجد على مستوى المدينة العتيقة، أنها مازالت تحتفظ بوجود الأنشطة الأصيلة، والتي يُعبر عنها، بانتشار محلات الأنشطة الحرفية، والتي نجدها شبه غائبة بالمركز العصري. وهذا المعطى، يكشف عن أن المدينة العتيقة لازالت تحتل مكانة جد متقدمة على مستوى المدينة ككل، فيما يخص الأنشطة الحرفية "الأصيلة".

5.3 محلات تعرف تباينا في التجهيز والأشكال الخارجية

يظهر من خلال معاينة المظهر الخارجي للمحلات الموجودة بالمركزين المدروسين، أن هناك اختلافات واضحة وملموسة، فنجد الواقعة بالمدينة العتيقة، لازالت -مع وجود بعض الاستثناءات- تحتفظ بطابعها العادي والمتواضع والموحد (أبواب خشبية خضراء، صباغة الجدران بالجير، غياب الزليج على المستويين الداخلي والخارجي...)، بينما نجدها في الجانب الآخر (المركز العصري)، تتميز بتنوع أشكالها الخارجية (أبواب من الحديد المتنوع الأشكال، واجهات بأبواب زجاجية ومن الزليج والرخام الفخم...) وأهمية تجهيزاتها.

6.3 تصارع الوظيفتين الاجتماعية (الأصيلة) والاقتصادية (الجديدة) للمساكن

مما لا شك فيه، أن المدينة العتيقة والمركز العصري، يشكلان مختبرا حقيقيا لدراسة ومعرفة أهمية التصارع القائم بين الوظيفة الاجتماعية للمسكن (وظيفة السكن) والوظيفة الاقتصادية الجديدة. ذلك أن العديد من المساكن، بالمركز العصري أو أجزاء منها بالمدينة العتيقة، تحولت إلى محلات مهنية، بتنوع وظيفتها بين التجارية والخدمية.

فعلى مستوى المدينة العتيقة، يعكس ارتفاع عدد محلات الأنشطة الاقتصادية إلى أهمية تصارع الوظيفتين الاجتماعية والاقتصادية للمسكن، إذ تحولت أجزاء من المساكن على طول المحاور الكبرى المتفرعة من أبواب المدينة، إلى محلات مهنية (تجارية على وجه الخصوص). ويعتبر محور باب النواذر-باب المقابر والمحاور المتفرعة من باب العقلة (محور سيدي علي اليوسفي بشكل أساسي) أهم المحاور التي تعرف انتشارا لهذه الظاهرة. ومن المؤكد أن ذلك، أخل بالوظيفية المجالية التي كان يمتاز بها التنظيم المجالي الأصيل من جهة، ومن جهة أخرى، يعكس أهمية المضاربة العقارية التي يشهدها النسيج العتيق.

وفي ذات السياق، شهد المركز العصري ولازال، تحول العديد من الشقق السكنية إلى محلات للأنشطة الخدمية، بل إن بنايات (عمارات) بأكملها تحولت من صيغتها السكنية إلى ممارسة الأنشطة الاقتصادية، خاصة أن هذا المجال يعد أهم مركز للخدمات على مستوى المدينة؛ الشيء الذي يجعل الاقبال على الشقق به أمرا مغريا لأصحاب المحلات الخدمية. ومن نتائج ذلك، احتدام حركة المضاربة العقارية، حيث تصل أثمان العقارات (سواء للبيع أو للكراء) إلى أقصاها على مستوى المدينة.

ووجب التنبيه، في هذا الإطار، إلى أن مزاحمة الأنشطة الاقتصادية بالمباني، حيث المركز العصري، يسبب ارتباكا في استغلالها من طرف جميع المرتفقين (الملحق رقم 1)، كما أنه يخلق تدمرا وإزعاجا لبعض سكان البناية، نظرا لصعوبة ضبط الأفراد والأشخاص (الزبناء) الذين يلجئون إليها.

تلك بشكل عام، أهم الخصائص التي تتميز بها محلات الأنشطة الاقتصادية بالمركزين المدروسين، الشيء الذي يجعل منهما، مجالين منفتحين ومكملين لبعضهما وهذا التكامل يبرز من خلال بنية الأنشطة الممارسة فيهما.

4. بنية اقتصادية يميزها التباين على مختلف الأصعدة بين مركزي مدينة تطوان

انطلاقا من نتائج العمل الميداني (2016)، تبين لنا أن مركزي مدينة تطوان يحتضنان مجموعة من الأنشطة الاقتصادية التي تميز بنيتها بوجود اختلافات جوهرية (الجدول رقم 3). ومن خلال معطيات الجدول، يتبين أن التجارة، تعتبر القطاع الأكثر حضورا وهيمنة على بنية الأنشطة الاقتصادية بمركزي المدينة، حيث نجده يستحوذ على نسبة 55.83% بمجموع 2055 محلا تجاريا، يليه من حيث الأهمية القطاع الخدمي الذي شهد تطورا مهما، حيث بات يشكل 35.89% (1321 محلا) من مجموع الأنشطة الاقتصادية، علما أنه كان يشكل 22.94% فقط سنة 1971. فيما يحتل القطاع الحرفي المرتبة الأخيرة من مجموع الأنشطة الاقتصادية بالحي بما نسبته 8.29% وما مجموعه 268 محلا حرفيا (90.46% منها يقع بالمدينة العتيقة).

والواقع أن دراسة بنية الأنشطة الاقتصادية بكل مركز على حدة، تكشف لنا عن أهمية التباين الحاصل بين مكوناته الاقتصادية، حيث نجد أن القطاع التجاري، وإن كان يعتبر القطاع الأكثر حضورا ضمن مكونات الأنشطة الاقتصادية بمركزي المدينة، فإنه عند الحديث عن كل مركز على حدة، فإننا نجد أن هذا القطاع، يحتل الرتبة الأولى في المدينة العتيقة بـ 63.92% من مجموع الأنشطة الاقتصادية بهذا المجال 29.94% من مجموع الأنشطة الاقتصادية بمركزي المدينة. وتعتبر تجارة الملابس (25.32%) وتجارة التغذية (15.43%)، أهم الأنشطة التجارية الممارسة في المدينة العتيقة، الشيء الذي أعطى أفضلية القطاع التجاري بالمدينة العتيقة على حساب المركز العصري. فهذا الأخير، تنخفض فيه نسبة القطاع التجاري به إلى ضعفي ما هو مسجل بالمدينة العتيقة (48.70% من مجموع الأنشطة الاقتصادية والتي تمثل 25.89% من مجموع الأنشطة الاقتصادية بمركزي المدينة). وهذا الأمر، يؤكد صحة ما ذكر سابقا، وهو ضعف (باستثناء تجارة الملابس التي بلغت نسبتها 24.27% من مجموع الأنشطة الاقتصادية بالمركز العصري مقابل 24.42% لباقي الأنشطة التجارية بالمركز العصري) مساهمة الأنشطة التجارية بالمركز العصري على ما هو مسجل بالمدينة العتيقة (مساهمة باقي مكونات القطاع التجاري: تجارة التغذية (10.42%)، تجارة التجهيز (4.24%) والتجارة الأخرى (9.76%)، محدودة بالمقارنة مع تجارة الملابس، حيث تشكل نسبتها مجتمعة سوى 24.42% من مجموع الأنشطة التجارية بالمركز العصري).

الجدول رقم 3: توزيع عدد ونسبة الأنشطة الاقتصادية بالمدينة العتيقة والمركز العصري وبهما معا سنة 2016								
مكونات الأنشطة الاقتصادية	المدينة العتيقة	% *	** %	المركز العصري	% *	** %	مركزا المدينة	%
الملابس	457	26.51	12.42	475	24.27	12.90	932	25.32
التغذية	364	21.11	9.89	204	10.42	5.54	568	15.43
التجهيز	133	7.71	3.61	83	4.24	2.25	216	5.87
أخرى	148	8.58	4.02	191	9.76	5.19	339	9.21
مجموع التجارة	1102	63.92	29.94	953	48.70	25.89	2055	55.83
الخاصة	178	10.32	4.84	733	37.46	19.91	911	24.75
الإصلاح	50	2.90	1.36	65	3.32	1.77	115	3.12
الفندقية	126	7.31	3.42	169	8.64	4.59	295	8.01
مجموع الخدمات	354	20.53	9.62	967	49.41	26.27	1321	35.89
الحرف	268	15.55	7.28	37	1.89	1.01	305	8.29
المجموع	1724	100.00	46.84	1957	100.00	53.16	3681	100.00
المصدر: عمل ميداني شخصي 2016.								
*نسبة النشاط ضمن الأنشطة الاقتصادية بأحد المركزين سنة 2016.								
**نسبة النشاط ضمن الأنشطة الاقتصادية بمركزي مدينة تطوان سنة 2016.								

وعلى عكس ما هو حاصل على المستوى التجاري، يلاحظ انطلاقا من نفس الجدول، أن الأنشطة الخدمية تسجل حضورا مهما في بنية الأنشطة الاقتصادية بالمركز العصري، حيث بلغت نسبتها حوالي الثلثين (49.41%) من مجموع الأنشطة الممارسة بهذا المجال، وأكثر من الثلثين (26.27%) من مجموع الأنشطة الاقتصادية بمركزي المدينة. في حين لم تمثل نسبة هذا القطاع سوى 20.53% من مجموع الأنشطة بالمدينة العتيقة.

ومن الواضح أن القطاع الخدمي بالمركز العصري استفاد كثيرا من تركيز مجموعة من المرافق الإدارية والصحية بهذا الحي وبالأحياء القريبة منه، كما أن استفحال المضاربات العقارية وتحول الوظيفة السكنية بهذا الحي، لعب دورا بارزا في احتضانه (أي المركز العصري) لأغلب الأنشطة الخدمية النادرة على مستوى المدينة. وهذا ما جعل دينامية الأنشطة الخدمية بالمركز العصري تعرف ارتفاعا مهما، حيث انتقلت نسبة المحلات الخدمية من 30.98% سنة 1971 إلى 43.74% سنة 2004، لتستقر في 48.70% سنة 2016. بينما سجلت معدلات هذا القطاع استقرارا بالمدينة العتيقة (من 19.44% من مجموع الأنشطة الاقتصادية سنة 1971 إلى 21.88% سنة 2004 ثم إلى 20.53% سنة 2016).

ومن جانب آخر، نجد أن القطاع الحرفي وبالنظر إلى الإكراهات التي يعرفها، فإنه عرف دينامية تراجعية، من مظاهرها اختفاء مجموعة من الحرف وتراجع تمثيله الاقتصادية، لا على مستوى المركزين المدروسين، ولا على مستوى المدينة العتيقة، حيث أصبحت تحتل مراتب جد متدنية في الهرم الاقتصادي بهذه الأخيرة.

5. تحليل النتائج:

عموما، يتضح مما سبق، أن البنية الاقتصادية لمركزي مدينة تطوان تعرف تفاوتات واختلافات جوهرية بين مختلف قطاعاتها الاقتصادية (التجارية، الخدماتية والحرفية). ويعود هذا الاختلاف إلى التباين الكبير بين مكونات كل قطاع، وإلى اختلاف الوزن الاقتصادي لكل مركز على حدة من جهة، وإلى تباين واختلاف مكونات الأنشطة الاقتصادية بين المركزين المدروسين من جهة أخرى.

بيد أن هذا الاختلاف الحاصل على مستوى البنية الاقتصادية للمجالين المدروسين، أحدث نوعا من التكامل والانسجام بينهما (المجالين المدروسين)؛ بل إنه لعب دورا رئيسيا في إضفاء نوع من التخصص الوظيفي على مستوى استقطاب وبرز بعض الأنشطة الاقتصادية، فإذا كان المركز الحضري يشكل قطبا خدماتيا على مستوى المدينة، فإن المدينة العتيقة، تعتبر مركزا حرفيا رئيسيا بتطوان، هذا إلى جانب أهميتها على المستوى التجاري، حيث باتت تشكل أحد أهم الأقطاب التجارية على مستوى تطوان. وهذه المعطيات جعلت من المجالين المدروسين يلعبان دور القيادة على مختلف مكونات المجال الحضري التطواني.

6. خاتمة:

على سبيل الختم، تبين لنا أن الأنشطة الاقتصادية بمركزي مدينة تطوان تحتل أهمية بالغة ضمن المكونات المجالية للحين، كما تعتبر أحد العوامل الأساسية المساهمة في اندماجهما (أي المركزين المدروسين) في التنظيم الحضري للمدينة ككل.

ومن جهة ثانية، تأكد لنا أن المركزية الحضرية للمجالين المدروسين من خلال أنشطتهما الاقتصادية لازالت قائمة رغم التحولات التي مست وتمس الخريطة الاقتصادية للمدينة (ظهور مجموعة من محاور الخدمات، ظهور أسواق جديدة للقرب بمجموعة من الأحياء)، وقد ساهمت في ذلك الحمولة التاريخية للمجال وحضوره ومركزيته في ذهن ومخيلة المواطن التطواني، وإلى جانب ذلك، فإن الموضع الذي يتوطنان بهما المركزان، جعل منهما -بدرجات متفاوتة- قلب المدينة النابض. ومن جانب آخر، اتضح لنا صحة الفرضية التي انطلقنا منها، ذلك أنه على الرغم من اختلاف مكونات البنية الاقتصادية للمركزين المدروسين، فإن ذلك خلق نوعا من التكامل والانسجام الوظيفي بينها، وعمل على تنويع أشكال الاستقطاب على باقي أحياء المدينة.

7. قائمة المراجع:

الشيخي (نور الدين)، 2004-2005، "دراسة جغرافية للمجموعة الحضرية التطوانية"، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافيا البشرية، جامعة محمد الخامس-أكادال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب.

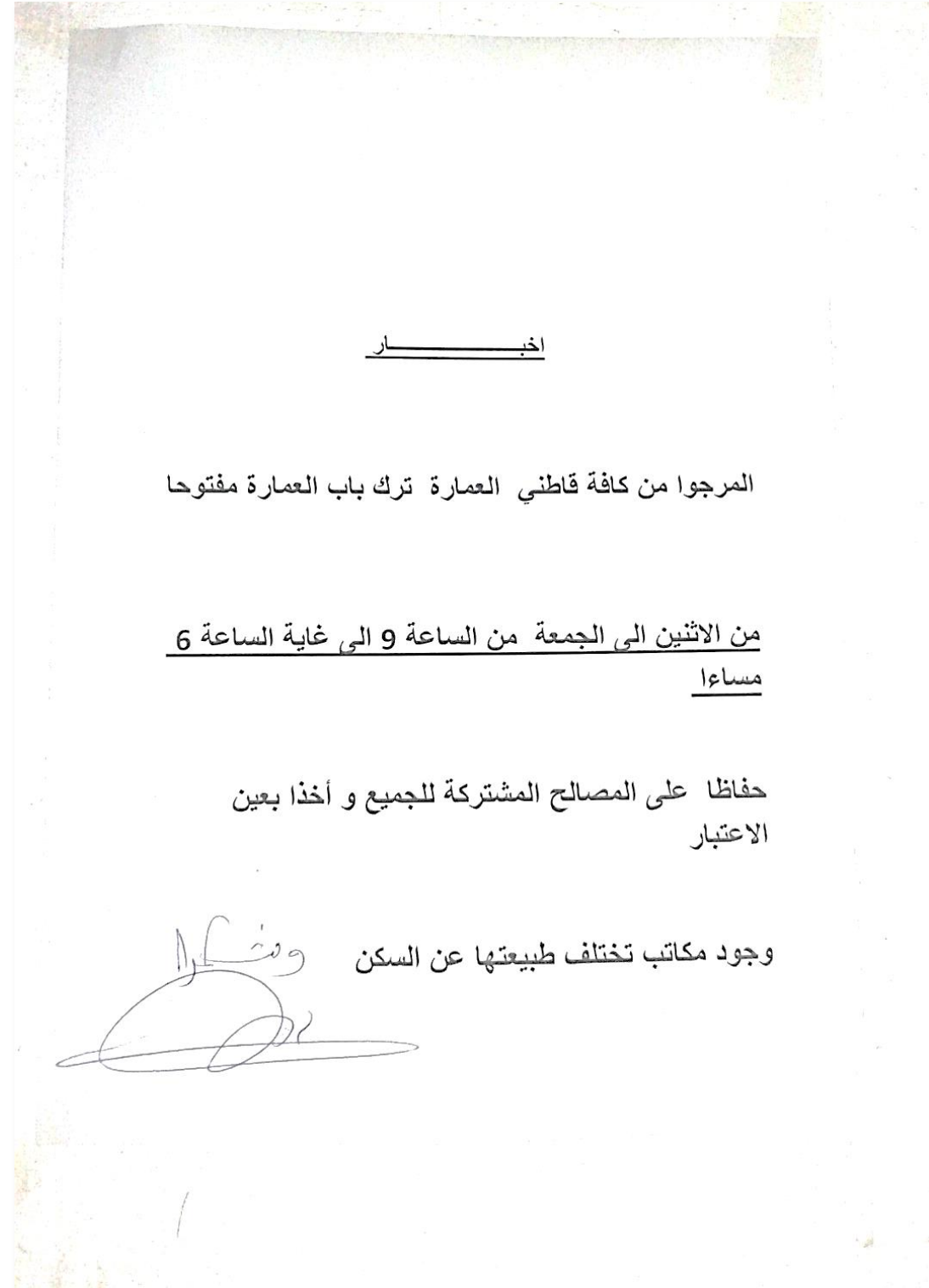
- الزروالي (بلال)، 2018-2019، "مركزا مدينة تطوان ("العصري" و "العتيق") الديناميات ومعضلة الإعداد والتدبير"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، المغرب.

BELFQUIH (M) et FADLOULAH (A), 1986, « Mécanismes et formes de croissance urbaine au Maroc : cas de l'Agglomération de Rabat-Salé ». Imprimerie El Maarif Aljadida Rabat, Maroc.

EL ABDELLAOUI (M), 1986, « La Médina de Tétouan et son évolution récente. Etude de géographie urbaine ». Th. Doct. Troisième Cycle. U.E.R. Aménag. Géogr. Informat., Univ. Francios Rabelais, Tours, France.

8. ملاحق:

الملحق رقم 1: إخبار عن ضرورة ترك باب البناية (عمارة) مفتوحا مراعاة لمصالح كل المرتفقين (السكان وأنشطة الخدمات)



المصدر: وثيقة إخبار سكان بإحدى العمارات بالمركز العصري.